5

لماذا يكرهني الرب؟

يكرهني الرب لأسباب كثيرة. يتعين علي أن أكون أكثر تحديداً: رب الإنجيليين التدبيريين يكرهني. يمقتني. مشيئته هي أن أموت موتاً عنيفاً وأعيش معاناة أبدية. أما رب أمي النيكاراغوية الذي تعرفتُ عليه وأنا طفل فكان يحب الجميع: المسلمين، اليهود، الهندوس، الآسيويين، السكان الأصليين، الزنوج، وحتى البيض الذين سرقوا حقيبتي بحثاً عن بقول نطّاطة. غير أن رب الماما هو من تلك الأنماط الليبرالية، بل لعله شيوعي في الحقيقة. إن رب الماما، ذلك الساذج المولع بالتعددية الثقافية لا يؤمن حتى بالجحيم أو النعيم. كادت الولايات المتحدة أن تجهز على رب أمي.

أظل أسمع صبح مساء عبر التلفزيون والراديو أن الرب حقود. يعشق (نعم هو لا هي على الدوام) الحرب. هو **بالتأكيد** مولع بالحرب. يحبها حين يبادر يهود أمريكيون لا يعرفون كلمة عبرية واحدة إلى استيطان الضفة الغربية ويمتشقون السلاح. يضاعف من حبه لها حين يستخدمون ذلك السلاح ضد الفلسطينيين. يحبها حين يقدِّم رئيس الجمهورية - الذي يتواصل معه يومياً - على تنفيذ مشيئته ويقحم الولايات المتحدة في حرب بلا معنى. يحبها

حين تتم استثارة غضب أولئك الصينيين الوثنيين من قِبَل ذلك المخلوق الذي مسخه باسم توم ديلاي. يحبها، قبل كل شيء وأكثر من أي شيء آخر حين يصبح مبعوثوه المميزون والمختارون أغنياء - اعني تفوح منهم رائحة الثروة، أغنى بكثير مما توحي به أحذيتهم المصنوعة من جلود التماسيح (يتعين على هؤلاء المبعوثين والرسل حسب توجيهات الرب أن يكونوا متواضعين). إن الرب رأسمالي من قمة الرأس إلى أخمص القدم دأب على شحن السوق الإنسانية بفيضٍ من التجليات الروحية المفعمة بعنصري الطمع والاستغلال. إن الرب يحب الفقراء شرط أن يسلّموا بفقرهم ويمكّنوا الأغنياء من مضاعفة ثرواتهم. يجري استثناء الفقراء وإغراقهم في بحر من الإطراء إذا ما بادروا إلى تقديم ما يملكونه، أو لا يملكونه، إلى الأثرياء. الشيكات وأوامر الصرف، هي الأخرى، مقبولة بالطبع.

غير أن الرب هذا يكرهني. هو يكرهني لأنني مازلت مرتبطاً، في الخفاء، برب أمي. هو يكرهني لأنني أعارض الحرب في العراق. هو يكرهني لأنني أدرّس مقررات الآداب متعددة الثقافات. هو يكرهني لأنني لا أعطي صوتي الانتخابي للحزب الجمهوري. هو يكرهني (لأنني مؤمن لاهوتياً بأن رب المسلمين هو نفسه رب اليهود والمسيحيين). هو يكرهني لأنني أحترم الأكلو ACLU الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية. هو يكرهني لأنني أحب فلسطين. ولكنه يكرهني كثيراً جداً لأنني عربي.

لعل التهديد الأكبر الذي تواجهه الحكومات المسيحية هو ذلك المتمثل بالإرهاب المسيحي. فالمسيحيون المتطرفون يحقدون، آخرا

لطاف، على نمط حياتنا ويحتقرون حرياتنا؛ ذلك هو السبب الكامن وراء سعيهم الدؤوب لتعطيل دستورنا.

تبرئة المسيحية المتطرفة

إن الصعود الذي شهدته السنوات الأخيرة لمتعصبي الوطنية القسرية من أمثال دانييل بايبس، سيان هانيتي، وآن كولتر أفسح في المجال لأن يصبح رُهاب الأجانب جزءاً مقبولاً من الخطاب السياسي الرئيس. والجزء الأكبر من رهاب الأجانب موجه ضد العرب والمسلمين (مع أن موقع Front Page Mag.com يتوفر على قسم فيه فيض من المقالات التي تنتقد هجرة ذوي الأصول الاسبانية بعنف). ثمة دوائر يمينية باتت راسخة القناعة، وعلى نحوٍ استثنائي، بأن المسلمين غير جديرين بالثقة لأنهم، وإن قالوا في العلن ما هو صحيح (شرط أن يتحدد ما هو "صحيح" حسب مفهوم الجمهوريين البيض)، يحلمون، سراً، بقلب الولايات المتحدة إلى جمهورية إسلامية. لذا فإن جميع المسلمين مشبوهون لأنهم عاجزون عن، أو غير راغبين في، تبني العلمانية. يا لها من فكرة مخزية فكرياً وإجرامية على صعيد افتقارها إلى المسؤولية! يضاف إلى ذلك أنها منافقة في الوقت نفسه.

مازلت أنتظر سماع بايبس، هانيتي، كولتر، أو أي متعصب وطنية قسرية آخر وهو يأتي على ذكر طائفة المسيحيين التدبيريين الذين يسعون إلى قلب الولايات المتحدة من دولة ديمقراطية علمانية إلى دولة دينية (ثيوقراطية). فالبيان التبشيري الصادر عن أبرشيات جيري فالول، مثلاً، يتضمن "شفاء جروح اللا أخلاق

والكفر في دولتنا". ليس باتْ روبرتسون في كتاب **الخطايا العشر: استعادة بركات ونعم الوصايا العشر** إلا سيلاً من النقد العنيف للعلمانية ودعوة صريحة لأتباعها إلى استعادة دور الرب الصحيح في المجال العام. في مقابلة حديثة لاحظ تيم لاهاي "أننا ضحايا مجتمع علماني... وبالتالي فإن ما لدينا لا يعدو كونه أقلية علمانيين ليبراليين يتولون قيادة بلدنا إلى الخراب ولابد لنا من العودة إلى ضمير الأمة". هذه العواطف التي تتناقض بوضوح مع الدستور يعدها متعصبو الوطنية الضرورية أو القسرية مُثُلاً عُليا قومية جديرة بالثناء.

لو كنت سأستخدم منهجية بايبس في تحدي المسيحيين الإنجيليين، لسارعت إلى وضعهم جميعاً في خانة الخطر الذي يتهدد نمط الحياة الأمريكية، بمن فيهم أولئك الذين وُلدوا لأبوين إنجيليين وإن لم يكونوا ناشطين في الكنيسة. وانطلاقاً من إيديولوجيتهم المنطوية على التهديد لما ترددت في المبادرة إلى إقناع الحكومة بضرورة وضعهم تحت المراقبة واعتقال كل من قد يشكل خطراً على العلمانية الأمريكية التي هي إحدى الركائز الأساسية للحرية، وحرمانهم من إمكانية الحصول على المشورة الحقوقية. وإذا قررت الحكومة أن أياً من المعتقلين على درجةٍ كافية من الخطورة لما تذمرتُ من قيامها بتعذيبه. ما كنتُ لأبالي كثيراً بمثل هذا الوضع لثقتي بأن وسائل الإعلام التعاونية لن تبادر قط إلى انتقاد الأمر بل وستستمر في الإفادة مني بوصفي معلقاً محترفاً.

من يُمْن الطالع أن رب الماما كان قد حَذَّرني من التعميم، وبالتالي فأنا مدرك لأهمية عدم اختزال ملايين المسيحيين الإنجيليين وحشرهم في المواقف التي تعبر عنها بعض شخصياتهم التلفزيونية. فالطائفة الإنجيلية مثلها مثل سائر الطوائف المسيحية، شديدة التنوع لاهوتياً، مع أن التدبيريين، ويُعْرَفون أحياناً بالصهاينة المسيحيين، بين الإنجيليين، يحصلون على القَدْر الأكبر من اهتمام الصحافة. سيكون تركيزي في هذا الفصل على هذه الطائفة. أمران اثنان سيكونان بؤرتَيْ اهتمام استثنائي: تأثير التدبيريين في ثقافة أمريكا السياسية وسياستها الخارجية من جهة، والعنصرية المسعورة المعادية للعرب التي تعبر عنها شخصيات تدبيرية تلفزيونية على أنها، حسب لاهوتهم، عنصرية ليست مباركة من الرب وحسب بل هي مطلوبة من المؤمنين به.

الصهيونية المسيحية: مفارقة، لا تناقض

ظهرت التدبيرية للمرة الأولى في الولايات المتحدة أوائل القرن التاسع عشر وترتبط بقسيس من الكنيسة الإنجليزية يدعى جون داربي الذي تكررت سفراته إلى الولايات المتحدة ومارس تأثيراً في عدد غير قليل من القيادات البروتستانتية. أخذت التدبيرية اسمها من تقسيم العالم إلى سبع أحقاب، أو تدابير متباينة، كل منها تم التنبؤ بها في الكتاب المقدس. ونحن الآن موشكون على الدخول في التدبير السابع، أو الحقبة السابعة، الأمر الذي يعني أن نهاية العالم باتت قريبة. لذا فإن التدبيريين يتصفون بحماسة رسولية ملحاحة آملين أن ينقذوا أكبر عدد ممكن من الناس قبل الفرحة الكبرى،

تلك المناسبة التي سيبادر فيها الرب إلى نقل المؤمنين الصادقين إلى الجنة قبل أهوال المحنة حين يطلق طوفان غضبه على جموع الخطاة والكَفَرة. وأحد شروط المحنة الرئيسة المسبقة يتمثل بضرورة استعادة إسرائيل للشعب المختار، اليهود، الذين سيكون ثلثُهم موجودين لخوض معركة الهرمجدون النهائية الفاصلة بعد اهتدائهم إلى المسيحية اقتناعاً بالمسيح الحقيقي (أما الثلثان الآخران فيكونون قد هلكوا في المحنة).

وهكذا فإن التدبيريين يعارضون قيام أي دولة فلسطينية على أي بقعة من الأراضي المقدسة مؤمنين بأن من شأن ذلك أن يتدخل في مخططات الرب الخاصة بالمحنة والحساب فيستتبع غضبه الأبدي. كيف لا؟ وهو يعتمد على البشر في تنفيذ ما يتعين عليه أن ينجزه بمشيئة السماء. يأخذ التدبيريون رسالتهم مأخذ الجد عادّين الفلسطينيين أحد أكبر العقبات في طريق تنفيذ ما ورد في الكتاب المقدس. يرى جُلُّهم أن الفلسطينيين يجب أن يُرحَّلوا إلى الأردن حيث يستطيعون إنشاء دولتهم الخاصة. آخرون يؤمنون بإمكانية بقاء البعض في الأراضي المقدسة ولكن شرط أن تكون هذه الأراضي كلها قد أصبحت تحت السيادة غير المشروطة لدولة إسرائيل. والتدبيريون يؤيدون استيطان المناطق المحتلة ويدعمون إسرائيل مهما فعلت. إنهم شديدو المعارضة لأي خطة سلام، خصوصاً تلك المشروعات التي تقترحها منظمة الأمم المتحدة الشيطانية. كثيراً ما يزورون إسرائيل ويتبرعون لها بسخاء ويقدمون مبالغ طائلة إلى المستوطنات. ذلك هو السبب الكامن وراء تسمية الصهيونية المسيحية.

حصل جورج بوش الابن على نحو 50 مليوناً من الأصوات في2000. ثلاثون من الخمسين هم من المسيحيين الإنجيليين نصفهم تقريباً تدبيريون. نحو 30 بالمئة من هذا التأييد جاء، إذن، من المسيحيين الصهاينة. ونسبة أصوات المسيحيين الصهاينة الذين صوّتوا له في فوزه الانتخابي عام 2004 كانت مماثلة. جُل شخصيات الإنجيليين التلفزيونية مسيحيون صهاينة بمن فيهم تيم لاهاي، بات روبرتسون، جيري فالول، بني هين، رالف ريد وغاري باور. لديهم فريق ضغط في الكونغرس، حملة العمل العام الإسرائيلية للمسيحيين بقيادة الجمهوري ريتشار هلمان، أحد كبار موظفي مجلس الشيوخ. ومن المنظمات المؤيدة الدائبة جميعاً على حشد الدعم لإسرائيل: سفارة القدس المسيحية الدولية ("CEJ)، التحالف المسيحي (CC)، المجمع المعمداني الجنوبي (SBC)، جسور للسلام (BP)، صندوق أصدقاء القدس (JFF)، فريق القدس للصلاة (JPT)، آزر إسرائيل ("SW")، شبكة الإذاعات المسيحية (CBN)، الزمالة المسيحية - اليهودية الدولية ("FCJ)، مجلس بحوث العائلة (FRC)، مجلس التخطيط القومي (CNP)، ومسيحيون لخدمة إسرائيل/الولايات المتحدة (USA"C/). إحدى أقدم وأقوى هذه الجماعات هي سفارة القدس المسيحية الدولية ("CEJ) التي تتخذ من منزل عائلة إدوارد سعيد في القدس الغربية مقراً لها[1].

بالغ جيري فالول في الدعاية لإسرائيل إلى درجةٍ أن مناحم بيغن أهداه نفاثة لير[2] في ثمانينيات القرن العشرين. والمدعي العام السابق جون آشكروفت كان عضواً في فريق صلاة القدس

للحاخام يخيل إيكشتاين - بين عامي 2001 و2002 تمكن صندوق أصدقاء إسرائيل لإيكشتاين من جمع 15 مليوناً من الدولارات لمساعدة الاستيطان في الضفة الغربية. وفي 2002، وفقاً للأسوشيتد برس، "تبرع مسيحيو أمريكا بـ 20 مليوناً لمساعدة اليهود على الاستيطان في إسرائيل"(3). في كانون الثاني/يناير 2004 أوجد الكنيست الإسرائيلي ندوة حلفاء مسيحيين (CAC) بهدف تحسين جهود التنسيق مع الصهاينة المسيحيين الساعين إلى توطين - "إعادة توطين" كما يقولون - أعداد من اليهود في إسرائيل والمناطق المحتلة والمساهمة في الأشغال العامة كالملاعب والمستشفيات. هذا النفوذ كله تحققه بالاستناد إلى قوة القناعة الدينية. يقول جيري فالول: "كل من يقف ضد إسرائيل، يقف ضد الرب"(4). ومع ذلك فإن القناعة الدينية ليست مصدر الإلهام الكلي الوحيد للتخطيط في أي من الأوقات لأن مثل هذه القناعة في المجال العام متعايشة مع النزعة الكلبية القائمة على الشك. فالإسرائيليون الذين يرحبون بالمساعدات المالية الآتية من الصهاينة المسيحيين يفعلون ما يفعلونه انطلاقاً من المصلحة الأنانية ذات العلاقة الوثيقة، عادةً، بالدين، ولكن ليس في هذه الحالة. وشخصيات التدبيريين التلفزيونية الذين اغتنوا عبر الاتجار بلاهوت الفرحة الكبرى ومحنة الحساب ولا يتصرفون، بأكثريتهم الساحقة، بالمثل، إلا خدمة لمصالحهم المالية الخاصة. غير أننا نستطيع، رغم هذه الحقائق، أن نقول، بقدرٍ من اليقين، إن القناعة الدينية هي العامل الرئيس لانتشار الصهيونية المسيحية.

ما من مكان تتجلى فيه شعبية العقيدة التدبيرية كما تفعل في سلسلة كتب **لَفْتْ بِهايْنْد (متخلف عن الركب)** التي يصدرها تيم لاهاي وجيري بي جنكنز. فالسلسلة المؤلفة، حتى الآن، من اثنتي عشرة حلقة مع ديباجة وذيل، باعت، حتى تاريخ تأليف هذا الكتاب، 62 مليوناً من النسخ. والسلسلة التي تلخص النظرة العالمية القائمة على الحرب الدائمة بين الخير والشر، تتبع بطلها رايفورد ستيل الذي هو طيار مدني، وصحفياً يدعى بك وليمز وهما يعيشان تجربة محنة الحساب جراء إخفاقهما في الالتحاق بركب الفرحة الكبرى. لا يلبث حاخام إسرائيلي يدعى تسيون ابن يهودا، أدرك أن يسوعاً هو المسيح المخلص الحقيقي، أن يلتحق بستيل ووليمز المنخرطين في حرب ضروس ضد الشر والساعين إلى إدخال الناس في حظيرة الرب قبل تعرضهم للعنة الأبدية. وفي حين أن لاهاي يوفر أداة القصة اللاهوتية فإن جنكنز يتولى كتابة الروايات. تفوقت الكتب على مؤلفات من العيار الثقيل مثل كتابات ستفن كنغ، جون غريشام، وجي كي راولنغ، غير أن جنكنز نفسه يعترف، في نوبة غريبة من الشعور بالذنب، بأنها لا تنطوي على أي قيمة أدبية: "أعلم أنني لن أحظى قط بالاحترام بوصفي كاتباً كلاسيكياً. لا أدعي أن أكون نداً لسي إس لويس. إنني معجب بمن يكتبون بأسلوب أدبي. ليتني كنت متوفراً على ما يكفي من الذكاء لتأليف كتاب صعب القراءة!"(5).

تقوم السلسلة على تملق أسوأ جوانب التعصب الأمريكي. يبقى العرب، بالطبع، الخُطاة الأشرار النموذجيين الذين يستحقون الذبح مهما كان الثمن. كل الأمور في الروايات تتحول إلى مقولتي

"الخير" أو "الشر"، ومحاولة إدخال شخصيات متعددة ثقافياً مصطنعة ونمطية. من الواضح، مع ذلك، أن السلسلة تلبي حاجة لدى ملايين القراء؛ وسواء أكانت تلك الحاجة روحية، عاطفية، أم فكرية فإنها تميط اللثام عن الكثير من جوانب الحالة المَرَضية للثقافة السياسية التي تستمد الروايات قوتها منها. حذار الخطأ! ليست سلسلة كتب **لفت بهايند (متخلف عن الركب)** لاهوتية بمقدار ما هي سياسية، وكل ما يراه اللاديني أو العلماني مرعباً في الطموحات السياسية للصهاينة المسيحيين يجري الترويج له بوصفه شرطاً مسبقاً لتهدئة غضب الرب وصولاً إلى الخلاص. ومن ثم فإن لاهاي يتطلع إلى إحداث انقلاب في ثقافة الولايات المتحدة السياسية عن طريق الروايات. وأنا شديد القلق إزاء انتشار عنصرية معاداة العرب التي من شأن الروايات أن تبثها وهي تصور العرب عقبات على طريق تحقق خطة الرب لابد من الإجهاز عليهم واستئصالهم من الجذور. من الواضح أن عنصرية معاداة العرب مطلب لاهوتي لنسبة كبيرة من الجمهور الأمريكي وأن عنصرية معاداة العرب الصارخة تتيح للمؤلفين الذين يعترفون بأنهم لا يستطيعون أن يكتبوا فرصة أن يصبحوا مؤلفي الكتب الأكثر رواجاً وبيعاً، بدلاً من أن تثير الذعر وتدق نواقيس الخطر. ثمة مادة تفصيلية في **النيشن** نَأَتْ بنفسها عن التطرق الجدي إلى مخاطر الروايات بالنسبة إلى العرب ومادة افتتاحية غلافية عن لاهاي وجنكنز في **النيوزويك** أحجمت عن الإتيان على ذكر العرب من قريب أو بعيد(6). عمليات التجاهل هذه منطوية على قَدْر مخيف من اللا مسؤولية لأن من شأن العنصرية التي تستدعي نظرية

التدبيريين الحسابية التعبير عنها ألا تطاق مطلقاً إذا ما توجهت إلى أي جماعة غير العرب. أما الآن فثمة نظرية تقول بوجوب طرد العرب أولاً والمسارعة إلى ذبحهم جماعياً بعد ذلك مازالت تواصل رواجها في الولايات المتحدة وما من أحد يتحداها بوصفها نظرية عنصرية بالغة البشاعة، بل من منطلق تأثيراتها في السياسة الليبرالية والانتخابات الرئاسية.

الجوانب الأخرى لسياسة التدبيريين ليست أقل إثارة للقلق. قد يتعين عدم رؤية النفوذ الصهيوني المسيحي طاغياً وشاملاً، غير أن من المؤكد انه قوة فعلية. كتب وليم مارتن يقول:

> *على الرغم من أن اليمين الديني ليس حركة تيار رئيسي، فإنه ليس حركة هامشية أيضاً. فالبروتستانت الإنجيليون البيض، الذين يشكلون المنبع الرئيس الذي تأتي منه أكثرية أعضاء الحركة، يؤلفون 25 بالمئة من الناخبين المسجلين - ثلاثة أضعاف عدد الناخبين المسيحيين الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية، أربعة أضعاف الناخبين اللادينيين واثنا عشر ضعفاً لعدد الناخبين اليهود. فقط ربع أو ثلث الناخبين الإنجيليين يتماهون صراحةً مع اليمين الديني، غير أن تلك الشريحة، وسطياً، هي الأفضل تعليماً، الأعلى مرتباً والأكثر قرباً من شغل المناصب الاحترافية مقارنةً بغيرها من شرائح الإنجيليين، بل ومقارنةً، في الحقيقة، بمجمل سكان الولايات*

*المتحدة. وفقاً لدراسة أجرتها مجلة **حملات وانتخابات** في 1994 يهيمن هؤلاء على الحزب الجمهوري في ما لا يقل عن 18 ولاية ولهم نفوذ جوهري في ما لا يقل عن 13 ولاية أخرى، وهو ضع يراه جمهوريون كثر غير مفهوم وباعثاً على الجنون(7).*

يبين مارتن أن إحدى الطرق التي نمت بها الحركة التدبيرية بهذه السرعة هي شبكتها الإعلامية:

إن عدد مثل هذه الوسائل الإعلامية ومداها لافتان حقاً. فالولايات المتحدة وحدها تتوفر على أكثر من 200 محطة تلفزيونية مسيحية ونحو 1500 محطة بث إذاعي مسيحية، وجلها إنجيلية كما تبث بأكثريتها، أقله، بعض البرامج التي ينتجها قادة اليمين الديني أو مؤيدوهم. فمحطة نادي 700 العائد لبات روبرتسون يتعامل مع جمهور يومي مؤلف من مليون متفرج وشبكته الإذاعية المسيحية تخاطب 90 دولة بـ 40 لغة. ومنظمة جيمس دوبسون المعروفة باسم "ركّز على العائلة" توظف جزءاً من ميزانيتها البالغة 114 مليوناً من الدولارات في السنة في إنتاج ثمانية برامج إذاعية يصل أكثرها أهميةً - لعله التركيز اليومي على العائلة لمدة نصف ساعة - إلى نحو 5 ملايين مستمع في الأسبوع الواحد. أما رابطتا العائلة الأمريكية (AFA) ونساء أمريكا الحريصات (CWA) فتصلان إلى مئات

آلاف المستمعين عبر برنامجيها اللذين يدوم كل منهما نصف ساعة. لا تكتفي الشبكة المتعصبة بتسهيل عملية التعبئة بل وتساهم في رعاية الحماسة التبشيرية التي نادراً ما تضاهيها نظيرتها اليسارية بله الوسطية الأكثر اعتدالاً[8].

لعل أكثر جوانب هذه الحركة إثارةً للقلق هو تأثيرها في السياسة والتخطيط على الصعيدين الخارجي والداخلي، إضافةً إلى التأييد المطلق الذي لا يعرف معنى النقد للاستيطان اليهودي في الضفة العربية والقدرة على الحيلولة دون التقدم ولو خطوة واحدة على طريق إنجاز سلام إسرائيلي، فلسطيني قابل للحياة. وكما تلاحظ نشرة الكنيسة والدولة فإن "ديلاي قد اعترف أمام الملأ [في إحدى المؤتمرات] بأنه يمرر قراراته السياسية عبر مصفاة "نظرته التوراتية إلى العالم"[9]. هناك عدد مرعب من السياسيين والمدنيين الذين يشاطرون ديلاي موقفه: فـ "أحد المتحدثين [في المؤتمر] قال أن التوراة [الكتاب المقدس - الإنجيل] يقدم حلولاً لمشكلات معينة مثل مسألة الحد الأدنى للأجر، ضريبة مرابح رأس المال، أسبوع العمل المؤلف من 40 ساعة وضريبة العقارات"[10]. هذا النوع من المساعي التعبوية النبوئية ظل موجوداً لبعض الوقت. أعداد الأمريكيين الراغبين في إحداث تعديلات في القوانين الداخلية لتصبح شاملة الرجم شكلاً من أشكال العقاب، كما ورد في العهد القديم، أكبر مما يحلو لأي علماني أن يعترف[11]. وإذ ما تسنى لبعض شخصيات التدبيريين التلفزيونية، فإنهم لن يترددوا في فرض عقوبة السجن على "جريمة عدم الإيمان" بالقانون. ولعل

الأسوأ من ذلك هو أن أولئك الذين يجدون تأثير التدبيريين في العالم العربي مرعباً لن يطمئنوا إلى قيام

> *عدد من قادة اليمين المسيحي، بتشجيع من إيجازات خاصة في وزارة الخارجية، [في ثمانينيات القرن الماضي] بتوفير التأييد الإيديولوجي والدعم المالي للقوى المعادية للشيوعية في السلفادور، غواتيمالا، هندوراسونيكاراغوا. لعل الحدث الأبرز على هذا الصعيد هو قيام شبكة روبرتسون الإذاعية بتقديم مبالغ تتراوح بين 3 و7 ملايين من الدولارات إلى الحركتين المناهضتين للشيوعية في نياكاراغوا وهندوراس. كذلك قام روبرتسون بإضفاء صفة الأسد على دكتاتور غواتيمالا العسكري (المسيحي الحصادي) الجنرال ريوس مونت، الذي اقترف نظامه جرائم قتل آلاف أبناء القبائل المحلية وغيرهم من المدنيين الذين عُدّوا مؤيدين للشيوعيين، أو "مسكونين بالعفاريت" كما كانت الأجهزة الرسمية الغواتيمالية تزعم. أقدم فالول، جنباً إلى جنب مع عدد من وعاظ التلفزيون، على الدفاع عن قوى نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، زاعماً أن وسائل الليبرالية تشوه سمعتها ومصوِّراً المؤتمر الوطني الأفريقي دمية بيد السوفييت. والأكثر فضائحية من ذلك أن روبرتسون أقدم على بناء علاقات وثيقة مع الراحل موبوتوسيسي سوكو، دكتاتور زائير الفاسد*

الذي دام حكمه طويلاً - في تحالف وظفه الإعلامي الشاطر (المبادر) للحصول على تنازلات غاباتية ومنجمية لصالح شركته المعروفة شركة التنمية الأفريقية (ADC)[12].

لابد للتدبيريين، إذن، من أن يكونوا موضوع اهتمام بالنسبة إلى أي شخص حريص على الحفاظ على البقية المتبقية من العقل في الولايات المتحدة، وإن لم يكن ذلك الشخص مبالياً بالتأثير الخبيث الذي يمارسه التدبيريون فيما يخص العالم العربي. يتعين على جملة ارتباطات روبرتسون وفالول بالأوغاد واللصوص والحكام الدكتاتوريين أيضاً أن يؤكد الحقيقة البديهية التي تقول إن الظلم والتعسف لا يحدثان في فراغ وبالتالي لا يجوز تحديهما وحدهما بمعزلٍ عن أولئك الذين يدعمونهما.

سأعيد، على أي حال، فيما بقي من الفصل، توجيه الأنظار إلى النقد اللاذع الذي يستهدف العرب والذي يواصله عدد من نجوم التدبيريين التلفزيونية وسأسلط الضوء على وجوب عد نفوذ تلك النجوم التلفزيونية ظاهرة جديدة في الولايات المتحدة. إن نفوذ المنحرفين، المحتالين والمارقين جزء لا يتجزأ من عملية التكامل العضوي بين المسيحية الأمريكية والنظام الرأسمالي.

حرب شعواء على الشر

دأب بعض الصهاينة المسيحيين على جعل ذم العرب مهنة لهم. والعقيدة التدبيرية تستمد جزءاً كبيراً من فلسفتها من نظرية آخر الزمن التي تحتفل، كما تفعل رواية **الطاعون** لالبيركامو، عربدة

بالموت الجماعي لحشود عربية بلا وجوه. لم يسبق لأي نزوع ديني أن كان عنصرياً مفرطاً إلى هذه الدرجة في الولايات المتحدة منذ الأيام التي كانت شاهداً على تسويغ الفصل لاهوتياً من قبل الممارسين. فالرب الذي أنشأه التدبيريون رب متميز بالحقد، الكراهية، والانتقام، وملتزم بضمان دوام تفوق العرق الأبيض.

كثيراً ما يحاول الصهاينة المسيحيون وضع العرب في مشاهد حسابية تصورهم عقبات شريرة على طريق إعادة توطين اليهود في الأراضي المقدسة؛ والعرب ليسوا، بدورهم، إلا كَفَرة وأعداء للرب. وكما تقول **صحافة تشاتانوغا تايمز** الحرة عن ديلاي فـ "إنهم قد يتحدثون عن دولة فلسطينية في واشنطن، غير أن ديلاي يجول في الأراضي المقدسة حاملاً رسالة موجهة إلى صقور إسرائيل تقول: الحرب لم تنته، والولايات المتحدة هي شقيقة إسرائيل في حرب ضروس على الشر"[13]. تحدث ديلاي بطريقته النموذجية القائمة على المباشرة والمبالغة قائلاً: "إن الوقوف مع الخير ضد الشر أمر بالغ الصعوبة؛ يكلف مالاً ودماً"[14]. صاعق حقاً أن يكون سياسي أمريكي - ما ليس أقل من زعيم أكثرية المجلس الأخير - قادراً، في القرن الحادي والعشرين، على نعت شعب شديد التنوع يصل تعداده إلى نحو 300 مليون بـ "الشرير". من المؤكد أن ديلاي يتعرض للكثير من الانتقاد، وخصوصاً من جانب أعداد من الليبراليين التقدميين، غير أن موقفه الإبادي من العرب نادراً ما يؤتى على ذكره. بعبارة أخرى ليست الفضيحة متمثلة بالضرورة في ديلاي هنا؛ فالفضيحة الحقيقية المثيرة للقلق هي أنه لا يتعرض للاحتقار اليومي عبر حملة يومية نشيطة ضد تأييده للتطهير العرقي.

غير أن أحداً لا يضاهي بات روبرتسون نشاطاً على هذا الصعيد. ففي الجزء الأكبر من وقته، حين لا يكون مشغولاً بتطهير المجتمع الأمريكي من "لَوْثة" العلمانية، يكون عاكفاً على تثبيت الإلحاق الحصري للمناطق المحتلة بإسرائيل، في عملية يطلق عليها اسم إيجاد "هيكل العالم الروحي"[15]. يسند سياسته بمعظمها إلى نوع من التفسير الديني. وعن التقسيم المقترح للقدس يقول: "باتت القدس اليوم هيكل إسرائيل. واليهود احتلوا القدس الشرقية تنفيذاً لنبوءة يسوع المسيح. وقد أنشئ الهيكل قبل 2500 سنة"[16]. يواصل كلامه مستحضراً الخوف بوصفه استراتيجيته الخطابية قائلاً:

> *أقول لكم، أيتها السيدات والسادة، إن هذا انتحار. إذا أقدمت الولايات المتحدة، أريدكم أن تسمعوني بوضوح، أقول إذا أقدمت الولايات المتحدة على الاضطلاع بدورٍ ما في سلخ نصف القدس عن إسرائيل وإعطائه لياسر عرفات ومجموعة من الإرهابيين، فإننا سنرى غضب الرب نازلاً على هذه الأمة جاعلاً الأعاصير أشبه برحلات مدرسية أيام الأحد. لم نبدأ بعد برؤية مدى السوء الذي سيصل إليه الوضع إذا ما واصلنا السير في هذا الطريق*[17].

أحياناً ينزلق روبرتسون إلى إطلاق بعض الملاحظات العلمانية كما حين قال منتقداً "المخربين العرب" :"إننا، مثل سائر الأسوياء، ندعم إسرائيل لأنها جزيرة ديمقراطية، جزيرة حرية فردية، جزيرة سيادة القانون، وجزيرة حداثة في زحمة بحر من الأنظمة

الدكتاتورية، قمع الحرية الفردية، ودين قائم على التعصب عازم على إعادة عجلة التاريخ إلى النظام الإقطاعي في الجزيرة العربية في القرن الثامن"[18]. وجدتني مطمئناً بعد قراءة روبرتسون إذ اكتشفنا أن المسلمين وحدهم هم المتعصبون، لأن من شأن احتمال انخراط مسيحيي أمريكا أيضاً في النوع نفسه من النزعة التعصبية المسيحانية - الخلاصية أو المهدوية أن يكون مرعباً. لو كان الأمر كذلك لجرى رسم السياسة الخارجية لا من منطلق المصلحة القومية بل وفقاً لتفسير محدد لنص الكتاب المقدس. ولو حدث ذلك لما بقي لدينا أي أساس أخلاقي نستند إليه في توجيه اللوم والانتقاد إلى أسامة بن لادن.

كذلك نجد لاهاي مولعاً بتجريد العرب، كل العرب، والمسلمين، كل المسلمين، من الصفة الإنسانية وبحض الحكومة الأمريكية على التخلي عن الهراء العلماني في إدارة السياسة الخارجية. فعن 9/11 يكتب:

> *علينا ألا ننخدع بالحملات الدعائية المكثفة والمتقنة عن الإيمان بـ"الرب" كما لو كان العالمان العربي والإسلامي مؤمنين بالرب. فالرب الذي يؤمنون به ليس، بكل تأكيد، رب الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. لا يكتفون باعتماد المفهوم اللاتوراتي واللاإنجيلي القائم على نشر عقيدتهم بحد السيف، بل ويتجاوزون ذلك إلى حد إنكار حقيقة أن يسوعاً هو ابن الرب ومسيح العالم ومخلصه. هذه العملية*

الإرهابية هي عملية غضب كافرة مفعمة بالحقد. لعل أفضل وصف لها هو أنها العملية القصوى التي تمارسها لاإنسانية الإنسان ضد أخيه الإنسان. فأي شيء يمكن أن يكون أسوأ من قول عبارة: "إذا لم تؤمن بما أنا مؤمن به، فلدي الحق في أن أقتلك؟" (19).

وقد زاد اطمئناني حين قرأتُ لاهاي وعلمتُ أن المسيحيين لا يؤمنون بتوسيع رقعة نفوذ معتقداتهم بالسيف. سأسارع إلى نقل الخبر إلى آباء وأمهات الأطفال العراقيين والفلسطينيين الذين قضوا نياماً في خيم المخيمات البائسة. يضاف إلى ذلك أن لاهاي على صواب حين يقول: "أي شيء يمكن أن يكون أسوأ من قول: "إذا لم تؤمن بما أنا مؤمن به، فسوف أقتلك؟""يمكنني أن أفكر بشيء واحد قد يكون أسوأ ألا وهو قول: "إذا لم تؤمن بما أنا مؤمن به، فإن الرب سيصب جام غضبه الأبدي عليك وسيُهلك عائلتك عن بكرة أبيها".

ولو عن غير قصد، يقر روبرتسون ولاهاي، أقله، بوجود شعب اسمه **الفلسطينيون**. أما شريك لاهاي توماس آيس فيتبنى موقفاً مغايراً: "لعل العبارة الأكثر إثارة لجنوني التي أسمعها هذه الأيام هي تلك المتمثلة بـ "الفلسطيني"(20). يجادل آيس أن ليس هناك شيء اسمه فلسطيني، مستنداً إلى كتاب جوان بيتر الفضائحي **منذ أقدم الأزمان** (1984). حتى إذا كان هناك فلسطينيون فإنهم، شأنهم شأن سائر العرب، برأي آيس، ليسوا إلا وكلاء إبليس: "بوصفنا مؤمنين بالرب وبكلمته علينا ألا نفاجأ بأن يكون إبليس والنظام

العالمي معادين لإسرائيل. كذلك ينبغي ألا نفاجأ بأن تبقى وسائل الإعلام الدولية دائبة (كذا)، رغم عدالة قضية إسرائيل، على ترديد صوت الشيطان بدلاً من صوت الرب. تبقى إسرائيل أمة الرب المختارة وهو يجترح جانباً رئيسياً من مخططه للتاريخ عبر بني إسرائيل"[21]. يقوم آيس بإيصال نظرية المؤامرة إلى مستوى غير مسبوق في هذه المسألة، غير أن منطلق خطابه متناغم مع كتابات تدبيرية أخرى: لابد، مهما كان الثمن، من منع العرب من تعطيل مخططات الرب بالنسبة إلى العالم.

على الرغم من أن الاستهزاء بالصهاينة المسيحيين باعث على الرضا العاطفي، فإن من الأفضل أخذ نظرتهم إلى العالم وتأثيراتها في الثقافة والسياسة الأمريكيتين مأخذ الجد. أجدني متسائلاً، قبل كل شيء، حول كيفية قيام الفقرات التي أوردتها بتسليط الضوء على فلسفة مختلفة في أي شيء أو أقل خطراً من تلك التي يوظفها أولئك الذين يعرفون بالإسلاميين. الإسلاميون مسلمون والتدبيريون مسيحيون. أوجه الاختلاف تنتهي جوهرياً هناك. فقادة الفريقين يزرعون الرعب والحماسة في قلوب أتباعهم تمهيداً لخدمة جدول أعمال سياسي خطر يكون استخدام العنف العشوائي فيه مشروعاً بوصفه مشيئة الرب.

سيسارع التدبيريون واعتذاريوهم إلى التذكير بـ 9/11 لإثبات أن المسلمين أشد خطراً. أميل إلى دعوة الناس إلى معاينة سجل التدبيريين، حيث سيجدون لا أدلة سجالية على قدرٍ موازٍ من الحقد وحسب بل وزحمة من المحاولات العنيفة التي نفذها

التدبيريون أو شجعوا عليها. ومن هذه المحاولات عملياً غزو للعراق وسياسة عقوبات قتلت أعداداً لا تُحصى من المدنيين؛ دعم نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا؛ استيطان فلسطين وتطهير الفلسطينيين عرقياً؛ الدعم المالي لحكام دكتاتوريين مثل موبوتوسيسي سوكو في زائير وريوس مونت في غوتيمالا؛ تشجيع عمليات الإبادة ضد هنود غواتيمالا (الحمر)؛ الاتجار بالماس الدامي عبر شركات مشبوهة؛ حشد التأييد للكونترا النيكاراغوية؛ ونشر العنصرية القائمة على الإبادة ضد المسلمين والمسيحيين الأرثوذكس من العرب. يبدو في الحقيقة أن بن لادن يستطيع أن يتعلم درساً أو أكثر من كفاءة المسيحيين وقدرتهم على التأثير في قرارات القادة الأمريكيين.

يتمثل الفرق الرئيس الآخر بين الأصوليين المسيحيين ونظرائهم الإسلاميين بكيفية قيامهم بوضع برامجهم الشريرة موضع التطبيق. يعيش الإسلاميون، بأكثريتهم، في دول تتعرض فيها الأصولية الدينية لقدرٍ فظ من القمع على أيدي حكام دكتاتوريين خائفين من تعرض أنظمة حكمهم للتقويض. وهكذا فإن قادة الإسلاميين يخططون في السر ويجندون أناساً لا علاقة لهم بأي حكومة لتنفيذ قراراتهم. ليس ثمة أي وسيط في هذه العملية.

أما المسيحيون فينشطون، بالمقابل، في ظل أنظمة ديمقراطية بوضوح مما يمكّنهم من انتخاب قادة ينفذون برامجهم، أو يمارسون الضغط على الساسة لاتخاذ قرارات متناغمة مع رغباتهم الجيو-سياسية. على الرغم من أن جورج بوش الابن مسيحي إنجيلي، فإنه

ليس تدبيرياً، غير أن أعداداً كبيرة من ناخبيه ومؤيديه الفلسفيين تأتي من صفوف التدبيريين مما يؤدي إلى بقائه مقيداً برغبات هؤلاء في كل قرار يبادر إلى اتخاذه. يحجم عن انتقاد شارون حين تطلق قاعدته التدبيرية التهديدات بسحب تأييدها إذا ما أقدم على التعبير عن أي انزعاج من سلوك إسرائيل في المناطق المحتلة. وبالمثل يقر بأنه يعول على معونة الرب في تمكينه من اتخاذ القرارات الصعبة كما لدى غزو العراق. وحسب مخططه الخلاصي المسيحاني كان مضطراً لتنفيذ رغبات الرب وإطاحة صدام حسين. جميع الأصوليين المسيحيين أيدوا هذه الحرب غير الضرورية من خلال الزعم بأنها كانت مشيئة الرب. أُخْفِقُ في الاهتداء إلى أي فرق بين هذه النفاية والأصولية الإسلامية التي لا يكف الأصوليون المسيحيون عن إدانتها بوصفها شراً.

وَحْدَه بقاء قادة الأصوليين المسيحيين غير ممسكين بزمام أمر مرتزقتهم لا يجعلهم أقل من نظرائهم الإسلاميين تورطاً في حمامات الدم غير المبررة. فتأثيرهم في، ودعمهم لجميع قرارات السياسة الخارجية الأمريكية الرهيبة خلال العقدين الماضيين، كانا حاسمين بالنسبة إلى صياغة تلك القرارات. ولم يكن تأثيرهم أقل أهميةً على صعيد تيسير انتعاش العنصرية الأمريكية جنباً إلى جنب مع تطورها بوصفها وباء لاهوتياً دائباً على استهداف عموم العرب والمسلمين. فالخلاصية أو المسيحانية المهدوية كانت دائمة الحضور في الولايات المتحدة بدءاً باستيطان نيوانجلند. وقد ظلت تتطور باستمرار عبر القرون، شأنها شأن سائر الإيديولوجيات، غير أن منطلقها الأساسي المتمثل بأن على الرب أن يتحكم بأفعال

الساسة يبقى دون تغيير. وكل من لديه أي أوهام حول عواقب هذا المنطلق يتعين عليه أن يلتمس العفو من الملايين العشرة من السكان الأصليين الذين ذُبحوا خلال فترة تشكيل الولايات المتحدة. وعليه بعد ذلك أن يزور فلسطين وينخرط في العمل من أجل ضمان عدم تكرار عملية إبادة مماثلة.

ادفع دولاراً، تدعم مستوطناً!

تقول **الواشنطن بوست** إن 000.400 من الإنجيليين زاروا إسرائيل في 2003.[22] ومنظمة الزمالة المسيحية - اليهودية الدولية ("FCJ) قامت بجمع 100 مليون دولار من التبرعات لمصلحة إسرائيل خلال العقد الماضي. ثمة كنيسة تدبيرية في آرفادا الكولورادية تقدم 100.000 دولار سنوياً إلى إسرائيل. وجماعة أصدقاء جماعات إسرائيل المسيحيين (C"CF) تتولى تمويل مشروعات في أكثر من ثلث المستوطنات في المناطق المحتلة[23]. مسيرة مسيحية للتضامن مع إسرائيل في واشنطن سنة 2002 اجتذبت بضعة آلاف من المشاركين وعدداً لا بأس به من الساسة البارزين. وحسب كلام كن سلفرستون ومايكل شرر "لم يسبق لسياسة الولايات المتحدة الشرق أوسطية أن كانت على هذا المستوى من التحالف مع إسرائيل كما هي في ظل جورج دبليو بوش بفضل الارتباطات القيادية والفعاليات القاعدية لجموع المسيحيين الإنجيليين"[24]. فالسفارة الإسرائيلية بواشنطن "قد تحولت إلى "مكتب لشؤون العلاقات بين الأديان" يستضيف شهرياً عدداً من المحاضرين الإنجيليين، يستقبل رحلات حافلات كنسية، وينظم

وجبات فطور جماعية"[25]. ثمة ما يزيد على 200 منظمة صهيونية مسيحية في أمريكا الشمالية؛ مجتمعة، ساهمت هذه المنظمات بما يزيد عن 100 مليون من الدولارات في عمليات توطين يهود في المناطق المحتلة مع ملايين أخرى لتمويل حملات سياسية في الولايات المتحدة. وعن المعارضة العربية لمثل هذه الجماعات، أعلن فرانكلن غراهام أن "العرب لن يكونوا مسرورين إلى أن يموت آخر يهودي. فهم جميعاً، دون استثناء، يكرهون اليهود. الرب أعطى الأرض لليهود. العرب لن يسلّموا بالأمر على الإطلاق"[26].

لليهود من جميع الانتماءات السياسية مئات ردود الأفعال على ما يقوله الصهاينة المسيحيون. ثمة رؤساء وزارات إسرائيليون منذ مناحم بيغن دأبوا على تملقهم مقدمين إلى قادة الأصولية المسيحية هدايا ثمينة (وقد حصل وليم بلاكستون حتى على غابة في الجليل سُميت باسمه). والسفارة الإسرائيلية في واشنطن تستقبل حافلات ملأى بالأصوليين المسيحيين ولا تتردد الحكومة في إغراق هؤلاء بالرعاية والاهتمام حين يزورون إسرائيل أعضاء في مجموعات منظمة. غير أن العديد من المثقفين اليهود يعبرون عن الانزعاج من التحالف الأصولي المسيحي - الإسرائيلي". ومن هؤلاء المنزعجين روبرت أو فريدمان، أستاذ العلوم السياسية في جامعة بلتمور العبرية، وغيرشوم غورنبرغ، مؤلف **نهاية الأيام**. عملياً، جميع التقدميين اليهود يمقتون التحالف، مثلهم مثل عدد لا بأس به من اليهود المتعصبين. أما صهاينة التيار الرئيس فردود أفعالهم ملتبسة، على الرغم من أن المنظمة الصهيونية الأمريكية (ZOA) ورابطة مناهضة التشهير (ADL) دأبتا على تشجيعه. إن

أكثرية المنظمات الصهيونية المنتمية إلى التيار الرئيس ترعى التحالف أو ترفض انتقاده. يزعم آبراهام فوكسمان من رابطة مناهضة التشهير (ADL) أن "إسرائيل تكافح التماساً للأمن، معزولة في عالم منافق. ليس الوقت وقت مخاطبة [الإنجيليين] والقول لهم: "لستم أصدقاء مثاليين"(27).

إلا أن فوكسمان ما لبث أن تجاوز حدود الحياد. فحسب كلام سلفرشتاين وشرر "بقيت الرابطة (ADL) صامتة عن [جيري] فالول وقامت في أيار/مايو بنشر إعلان في صحف رئيسية أعادت نشر مقالة كتبها الرئيس السابق للتحالف المسيحي، رالف ريد، كانت بعنوان "نحن المؤمنين نقف بثبات في صف إسرائيل". وفي تموز/يوليو بادرت المنظمة الصهيونية الأمريكية إلى تكريم بات روبرتسون لقاء أتعابه في خدمة إسرائيل"(28). إن الثقافة السياسية الفاسدة في الولايات المتحدة القائمة على أخلاقيات الربح تشكل جزءاً من السبب الذي يدفع جماعات مثل رابطة مكافحة التشهير (ADL) والمنظمة الصهيونية الأمريكية (ZOA) إلى التخلي عن أي إحساس بالكرامة مقابل الضرورات السياسية المؤقتة، وإن أدركت (كما ينبغي أن تكون قد فعلت) أن تحالفها مع الأصوليين المسيحيين ضحل ومحكوم بالإخفاق. فالأمريكيون يتعلمون منذ نعومة أظفارهم عبر مؤشرات سياسية ووسائل تسلية شعبية ووسائل إعلام تعاونية كيف يحمون مصالحهم ولو تطلب الأمر غدر الأصدقاء أو شكلاً آخر من أشكال التخلي عن الأخلاق. وبالفعل فإن أخلاق الربح السياسي والمالي تتفوق على القيم الأصيلة للعلاقات الأصيلة والسليمة بين الأشخاص، وهكذا فإن

الأمريكيين يجري تشجيعهم سراً على التماس أي مكاسب مباشرة متوفرة ولو على حساب ممالأة حركة سياسة خطرة. وفوكسمان حين يقبل بدعم الأصوليين المسيحيين لا يقوم، إذن، بقطع الطريق، حتماً، على مصالح حركته الصهيونية الخاصة؛ بل هو يعمل، بالأحرى، على إغناء تلك الحركة بقيم أمريكية أساسية. وهو يبين أيضاً، بكثير من الوضوح، مدى صعوبة الدفاع عن إسرائيل في مواجهة جملة الأدلة التي لا تُدحض المؤكدة لجرائمها، وهي صعوبة جلية أيضاً من مدى شعبية كتاب **منذ أقدم الأزمان** بين صفوف صهاينة التيار الرئيس.

يضاف إلى ذلك أن الرابطة (ADL) والمنظمة (ZOA) تتسيان أو تتناسيان أن أكثرية الأصوليين المسيحيين لا يؤيدون إسرائيل بالفعل، أقله، إسرائيل المعترف بها حالياً من قبل الأسرة الدولية. فهم يؤيدون تسوية مشكلة المناطق المحتلة التي هي قضية مختلفة كلياً تزيد من تجريم طبعاتهم الصهيونية وتجعلهم متواطئين خطابياً مع جرائم التطهير العرقي. ينبغي تذكير فوكسمان أن هناك مئات من المنظمات (وكثير منها فلسطينية) المؤيدة لحق إسرائيل في الوجود السلمي في الشرق الأدنى. ثمة أسئلة جدية تُطرح، إذن، حول السبب الذي دعا رابطة مناهضة التشهير إلى قبول مساعدة جماعة تستهدف علناً طرد الفلسطينيين من الأراضي المقدسة. بتحالفهما مع الأصوليين المسيحيين تجعل الرابطة والمنظمة نفسيهما منافقتين كلما زعمتا أنهما تؤيدان تحقيق السلم في الشرق الأدنى. كذلك قامتا بتعطيل هدفهما المتمثل بتمكين اليهود نظراً لأن أساس الجزء الأكبر من الفكر المسيحي الأصولي هو

السعي إلى هداية اليهود إلى المسيحية (أو أقله هداية أولئك الذين يبقون بعد قيام الرب بالإجهاز على أكثريتهم).

كذلك مارس المسيحيون الأصوليون تأثيراً واضحاً في سلوك العديد من الساسة الأمريكيين، كما حين أعلن السيناتور الجمهوري جيمس إينهوف من أوكلاهوما أنه يدعم إسرائيل "لأن الرب قال ذلك"[29]. ثمة مادة نشرتها **النيوزويك** تسلط الضوء على النفوذ الذي يمارسه المسيحيون الأصوليون على الساسة الأمريكيين بمن فيهم رئيس الجمهورية. تقول المادة:

> *في نيسان/ أبريل 2002 استشاط الصهاينة المسيحيون غضباً حين بدا الرئيس، في خطاب له في الروزغاردن إثر حادثة تفجير انتحاري استثنائية البشاعة في إسرائيل، مساوياً بين الإرهاب الفلسطيني وعمليات الجيش الإسرائيلي في الضفة العربية. لم يكتفِ بوش بالإحجام عن الدعوة إلى الإطاحة بياسر عرفات (أحد أهداف المتشددين)، بل بادر إلى إيفاد وزير الخارجية كولن باول إلى المنطقة للقاء الفلسطينيين. علق غاري باور، أحد قادة الصهاينة المسيحيين قائلاً: "كان ذلك أكثر من أن نطيقه نحن مؤيدي إسرائيل".*
>
> *وابل محموم من الرسائل الإلكترونية والعادية انهال على البيت الأبيض. وبتدبير من باور، فالول، بات روبرتسون وآخرين مئات آلاف الرسائل تدفقت على*

> *الإدارة حاضَّةً إياها على إطلاق يد شارون ونبذ عرفات. وقد فعل قادة الإنجيليين الشيء نفسه في زياراتهم الدورية للبيت الأبيض. يقول فالول "لنقل، إذن، إن الشرق الأدنى يكون موضوعاً للحديث في هذه الزيارات". ثمة أصوات أخرى - ربما أقوى - ما لبثت أن انضمت إلى الجوقة: أصوات قادة برلمانيين ومحافظين جدد داخل الإدارة وخارجها. سرعان ما بدأ سكرتير البيت الأبيض الصحفي آري فلايشر يصف شارون بأنه "رجل سلام"*(30).

ليس نفوذ طائفة الأصولية المسيحية، من نواحٍ كثيرة، إلا نتاجاً طبيعياً للسياسة الأمريكية حيث ظلت العلاقة المتداخلة بين الرأسمالية والدين قوية على الدوام، شأنها شأن رسوخ النزعة المسيحانية - الخلاصية في الخيال الأمريكي. ينبغي ألا نفاجأ كثيراً حين نرى أن العقيدة الدينية الغريبة تساعد على فرض السياسة الخارجية الأمريكية لأن الولايات المتحدة أنشئت على أساس فلسفة النزعة التوسعية المساوية الشاذة التي ما لبثت أن انقلبت إلى نوعٍ من القدر الصريح. فوجود مفهوم كهذا في ثقافة قائمة على نزعة مغامرة سياسية ذات دافع مالي كان محكوماً بأن يتمخض عن نوع من الصحوة الدينية التي لا تقل خطراً عن الأصولية الإسلامية التي لا يمل قادة أمريكا من شجبها بوصفها متخلفة وبربرية. وطالما دأبت سوق الولايات المتحدة القائمة على الإنتاج على تغريب أكثرية مستهلكيها وتدعيم نظام يتمادى في إفقار الأمريكيين مالياً وروحياً، فإن الناس سيواصلون اعتناق

إيديولوجيات مجنونة لالتماس معنى في عالم لا معنى له على ما يبدو. أقله يستطيع الرب تفسير العنف غير الضروري الذي تتخرط فيه الولايات المتحدة عبر طمأنة الأمريكيين إلى أن الأمر كله لا يعدوا كونه جزءاً من خطة أجازتها السماء تفضي إلى الفردوس، لا إلى المزيد من الفقر والاستلاب.

لا يسعني إلا أن أكرر تأكيد حقيقة أن الإنجيليين ليسوا جميعاً تدبيريين. لقد التقيت العديد من الإنجيليين الذين يؤيدون إيجاد دولة فلسطينية، وكما في أي طائفة يزيد تعدادها على 50 مليوناً، ما من رأي سياسي في الولايات المتحدة إلا وله من يمثله بين أبناء الطائفة. جُل الكنائس الزنجية الإنجيلية، مثلاً، لا تلتفت إلى سلسلة روايات **لفت بهانيد (متخلف عن الركب)** التي يصدرها لاهاي وجنكنز ولا تتخذ موقفاً رسمياً من الشرق الأدنى(31). ثمة أبرشيات إنجيلية أخرى ترى تجرؤ البشر على تطبيق خطة من صنع الرب ويتحمل مسؤوليتها بالتالي، مبالغة في الادعاء والتباهي. ففي نهاية عام 2003 بادرت ندوة فولر، إحدى المؤسسات الإنجيلية الرئيسة في باسادينا مشروعاً بكلفة مليون من الدولارات لرعاية الحوار مع المسلمين. ومشروع "فولر" هذا "يرمي" برأي **اللوس أنجلوس تايمز** "إلى تطوير ممارسات صنع سلام عملية بين المسيحيين والمسلمين، نشر كتاب عنها وتدريب الجماعات المحلية على الإفادة منها. إنها الأخيرة بين محاولات كثيرة بذلتها ندوة فولر منذ 11 أيلول/سبتمبر لبناء الجسور مع المسلمين"(32).

بالمقابل، بذل المسيحيون الأصوليون كل ما يستطيعونه من جهد منذ 9/11 لزرع الشقاق وتعميق الهوة بين المسيحيين

والمسلمين. بمعنى من المعاني، كانوا تجسيداً لتحقق حلم إدارة بوش: فبدون التأييد المطلق والأعمى لشخصيات الأصولية المسيحية التلفزيونية وزبانيتهم، كان من شأن بوش أن يجد صعوبة كبيرة في تبرير المراهقة الطائشة المبتذلة التي طبعت سياسته الخارجية. غير أنهم تسببوا أيضاً ببعض الصداع لإدارة بوش، كما حين أقسموا على نسف خارطة الطريق إلى السلام إذا لم يبادر إلى سحب تأييده لها. وحده الزمن سيبين ما إذا كان المسيحيون الأصوليون ظاهرة عابرة، بين أخرى كثيرة، في التاريخ الأمريكي، أم أن نفوذهم سيستمر في النمو. لعل أفضل ما نستطيع أن نتمناه هو الشلل الذي نشهده اليوم، لأن مواصلة المسيحيين الأصوليين اكتساب المزيد سوف يعني انتفاء أي مجال للفرح أو الخلاص، لأنهم سيكونون قد دمروا العالم قبل أن تتاح للرب فرصة الإجهاز عليه.

تلخيصاً: تأملات مسيحي

أنا مسيحي. وربط هذه الكلمة: **مسيحي**، في الكثير من الأحيان، هذه الأيام، بالتدبيريين يغمرني بالعار. أمضيت كثيراً من الوقت وأنا أتأمل العنوان الذي يمكنني استخدامه لوصف ديني بما يبقيه بعيداً عن مثل هذا الربط. نجحت في اجتراح فضاء يوفر ما يكفي من الراحة لهويتي عبر محاولة رفض العناوين، الدينية منها وغير الدينية، عند التنظير لمن أكون في الولايات المتحدة الحديثة. لا أتردد على الكنيسة، لا أصلّي، وليست لي أي علاقة وثيقة مع أي من يسوع أو الرب، فما الذي يمكن أن يضطرني، إذن، لأن أعد نفسي **مسيحياً** في المقام الأول؟ أنا مؤمن بوجود الرب ومعجب

بيسوع كثيراً بوصفه عَلَماً من أعلام التاريخ، إلا أنني مفعم شكاً بالدين المنظم مما أبقاني على الدوام بعيداً عن التدين. كما أنني عازم على ألا أصبح متديناً أبداً.

غير أن هذه العقلنة التي أستند إليها لتجنب العناوين والألقاب تُسبب لي شيئاً من عدم الراحة. يمكنني أن أعمل عند شخص وُلد مسيحياً دون أن يكون عربياً؛ غير أن كلمة مسيحي ذات أهمية بالنسبة إلى هويتي بوصفي عربياً مسيحياً، وإن لم تكن هذه الكلمة تعني شيئاً لاهوتياً. لعل السبب يكمن في كون المسيحية هي ديانتنا الأصلية نحن العرب المسيحيين. إنها ديانة نشأت في حديقتنا الخلفية وتُشكل جزءاً كبيراً من هويتنا الثقافية. وشخصية ديانتنا المحورية نبي متمتع باحترام أشقائنا المسلمين. كنائسنا صمدت قروناً بل وعشرات القرون أحياناً. وصور يسوع في تلك الكنائس تبرزه ذا بشرة سمراء وشعر كثيف، شخصاً لا يشبه يسوعاً الأشقر ذا الوجه الطفولي الذي يراه المرء في الكنائس الأمريكية. يسوعنا صلب العود، ذو قسمات ساميّة. يسوعنا يشبه أي عربي.

ثمة ما هو خاص في أن يكون المرء عضواً في أقدم طوائف العالم المسيحية، مقيماً بالتحديد حيث عاش جميع الأنبياء وحيث جرت الأحداث الكبرى التي نتعلمها في مدارس أيام الأحد. (حتى إذا كانت هذه الأمور أسطورية، فإنها توحي بالكبرياء، كما تفعل الإنجازات الأسطورية في تاريخ أي طائفة). نحن فخورون بأننا مسيحيون وإن لم يكن عدد كبير منا متدينين. لعل إحدى مفارقات طائفتنا المضحكة أن أكثرية المسيحيين العرب تتردد على الكنيسة

كنوعٍ من النشاط الاجتماعي - حيث إحدى الوظائف الرئيسة لاجتماعاتنا هي، في الحقيقة، تقديم الشباب من الجنسين بعضهم على البعض الآخر، - رغم انقضاء 2000 سنة على ارتباطنا بالمسيحية - ملزمون نحن أكثر بقيود ثقافتنا العربية المحافظة. بعد الصلوات والقداديس نحتسي الخمر وندخن "الأراكيل" .إن المتطلبات الثقافية، لا الدينية، هي التي نمتثل لها بوصفها شرعة سلوك. والمسيحية بالنسبة إلينا تعني شيئاً مختلفاً كثيراً عما تعنيه بالنسبة إلى مسيحيي أمريكا. تعني الانتماء إلى "أقلية" بين كل من العرب والغربيين على حدٍّ سواء. وتعني أننا لا نستطيع أن ننفصل تماماً عن ديننا، كما يفعل عدد كبير من أصدقائنا الأمريكيين بكثير من اليُسر(33).

غير أنني لا أستطيع التحرر الكامل من الضيق المترتب على كوني مسيحياً في الولايات المتحدة حيث العبارة مثقلة، بنظري، بكل هذه المعاني السلبية. بعد ساعات طويلة من البحث في عمق حقيقة التدبيريين مازلت، في الحقيقة، عاجزاً عن فهم هذه الطبعة الجديدة من المسيحية التي هي، مثل عدد كبير من الأشياء المبتدعة في الولايات المتحدة، شديدة الجرأة والقسوة مع إحساس طاغٍ بالإلحاح والتزام أعمى بتنفيذ رسالتها. يبدو لي أن التدبيريين يستمدون جزءاً كبيراً من قوتهم من الروح الريادية للولايات المتحدة، وهي روح مفعمة بفيض من المعاني الخلاصية - المسيحانية وبنوعٍ من المزاج الاستعماري - الكولونيالي. كذلك يراودني الشك حول كون هذه المسيحية إحدى العواقب الحتمية للمزاوجة بين القيادة والمال - فالتدبيريون الفاسدون، مثل عدد كبير من الشخصيات

المتدينة، اهتدوا إلى طريقة للاغتناء عبر إطلاق مواعظ الخضوع للوحيدين القادرين على اغتصابهم.

من الجانبين ليست تلك إلا طبعة مسيحية صادمة بقدرتها على تفريخ كراهية العرب وإيمانها الراسخ بضرورة إنهاء العالم بأقصى سرعة ممكنة. بموجب هذه الطبعة من المسيحية ليس مليارات المسلمين، الهندوس، البوذيين والطاويين موجودين إلا ليُذبحوا بأيدي قوى **الخير** تمهيداً لإرسالهم إلى الجحيم حيث يبقون إلى الأبد. في التاريخ المشين للتعصب الديني الذي اتسم به عالمنا، نجحت هذه المسيحية الجديدة في الوصول إلى مستوى جديد. ذلك هو ما يجعلني أطلق عليها اسم المسيحية الأصولية، لأن هذه الصيغة الجديدة جديرة بتسمية مماثلة إذا كانت الأصولية الإسلامية دائمة التعرض للشجب والإدانة بوصفها إيديولوجيا مقيتة وتهديداً لأمن العالم. إنني مسيحي وسليل المسيحيين الأوائل. وسوف تصيبني اللعنة إذا ضحيت بهذه الهوية على مذبح هوية أولئك الأصوليين.